إضاءات نقدية (فصلية محكّمة)
السنة الثالثة – العدد العاشر – صيف ١٣٩٢ش/ حزيران ٢٠١٣م
صص ١١١ ـ ٩١

الرثاء فی شعر الشریف الرضی

محمد إبراهيم خليفة الشوشترى*
محمد حسن امرايى**

الملخص

استطاع الشريف الرضى بشاعريته الفذة القوية، وبلاغته الأصيلة، وقدرته الباهرة أن يبرز فى مقدمة الفحول من الشعراء، لاسيما فى الرثاء والبكاء على الأهل، والأقارب، والأحباب ووصف تقلبات الزمان، وظهرت قصائده فى الرثاء مليئة بالمشاعر الجياشة. وجدير بالذكر أنّ قصائده فى رثاء الحسين(ع) مثال كامل احتذاه الشعراء من بعده لبيان مظلومية أهل البيت(ع) وفاجعتهم بمقتل الإمام الحسين(ع) وكانوا يحفظون وينشدون أشعاره الرثائية. إنّ مراثى الشريف الرضى –مع قلّتها– جعلته بارزاً بين معاصريه وشعراء الشيعة. تدرس هذه المقالة الرثاء عند الشريف الرضى وتثبت أنّ الرضى من أحسن شعراء الرثاء بلامنازع فى العصر العباسى، وأحسن تصرفاً فيه.

الكلمات الدليلية: الشعر العربى القديم، العصر العباسى، الرثاء، الشريف الرضى.

---

*. جامعة الشهيد بهشتى، طهران، إيران. (أستاذ مشارك)
**. خريج أكاديمية العلوم الإنسانية والدراسات الثقافية، طهران، إيران. m.h.amra@gmail.com
التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدى ناصرى
تاريخ الوصول: ١٣٩١/١١/٢١ش تاريخ القبول: ١٣٩٢/٤/١٢ش

المقدمة

قبــل أن نتوغل فی موضوع البحث جدير بالذكر والتنويه أن نقول إنه شــهد الأدب العربی فی عصوره المختلفة، العديدَ من الشــعراء والشخصيات اللامعة فكان لهم دورهم وتأثيرهم فی آفاق الأدب العربی وكانت إحدى هذه الشــخصيات والشــعراء الكبار فی العصر العباســی الثانی (٣٥٩-٤٠٦) العالم الأريب والفاضل الأديب الشــريف الرضی الــذی امتاز بآثاره القيمة العلمية والأدبية، وبمكانته الســامية. وهــذا ما دفعنا فی هذه المقالة إلى دراسة الرثاء فی شعر الشريف الرضی من خلال ديوانه معتقدين «أن الرثاء ينظمه الشــاعر على الوفاء فيقضی بشعره حقوقاً سالفةً بينه وبين الميت أو يعبر الشاعر برثائه عن مشاعره الحزينة التی أحس بها عندما أصابت المنية من يكون عزيزاً ومحبوباً لديه.» (الرافعی، ١٩٧٤م: ١٠٧/٣) فاختيارنا هذه المقالة، يرجع إلى الســببين الرئيسين أولاً: لأجل شــخصية الشــريف الرضی الذی تميــز بالتقوى، والــورع، والمنزلة الدينية، والاجتماعية، والسياســية بسبب نشأته الأسرية العظيمة الدينية، ثانياً: اشتهاره بأشعار الرثاء أكثر من كلّ أغراضه الشــعرية بحيث نســتطيع أن نسمّيه شاعر الرثاء بلا منازع، حيث انتشر صيته فيه.

تحتوی هذه المقالة على ثلاثة محاور: يتعلق المحور الأوّل بحياة الشريف الرضی وأدبه بصورة موجزة وذلک للتعرف على الشاعر وشخصيته فی عصره بشكل مختصر. و يختص المحــور الثانی بالرثاء لغــة واصطلاحا. والمحور الثالث يتطرق إلى الرثاء عند الشــريف الرضی وأقسامه وكيفية استخدامه.

ترجمته وآفاقه العلمية والأدبية

«هو أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسى بن محمد بن إبراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن على بن الحسين بن على بن أبی طالب عليهم السلام، المعروف بالموسوی نقيب الطالبين وكان يلقّب بالرّضی ذا الحســبين. (الثعالبی، ١٩٨٣م: ١٥٥/٣) لقّبه بهاءالدولة بن بويه بالطاهر الأوحد، والطّاهر ذی المناقب. (ابن أبی الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١) وكان يتولــی نقابة الطالبيين، و إمارة الحج، و النظــر فی المظالم. (ابن الأثير، ١٩٦٦م: ٤٨/٢، ابن الجوزی، ١٩٣٩م: ٢٤٧) وأمه فاطمة بنت حســين بن أبی محمد الحسين الأَطروش

بن علی بن حسن بن علی بن عمر بن الإمام علی بن أبی طالب (ع). (ابن أبی الحدید، ۱۹٦۵م: ۳۲/۱) وهی امرأةٌ جلیلة القدر وقد ألف الشیخ المفید (ره) کتابه أحکام النساء لِأنَّها أوصته به ویُنشِد الشریف فی شأنها (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۹/۱):

لَـو کَانَ مِثلَـکِ کلُّ أمِّ بـرةٍ غَـنَی البَنُون بِهَـا عَن الآباءِ

انحدر الشریف الرضی من المحتد الأصیل، ینتهی من أب إلی الإمام موسی الکاظم(ع) ومن أمّ إلی الإمام الحسین بن علیّ(ع) وکان علوی النسبین ولذلک لقّبه بهاءالدولة بن بویه بالرضی ذا الحسبین وذا المنقبتین. (ابن أبی الحدید، ۱۹٦۵م: ۱۱/۱)

کان مولده ببغداد سـنه تسع وخمسین وثلاثمائة. (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۵۵/۳) وکانت ولادتـه خلال فترة المطیع لله وحکم عزّ الدولة البویهی. (ابن الأثیر، ۱۹٦٦م: ۱۰۳/۵) نظم السّـید الشریف الرضی الشعر وعمره عشر سـنوات. (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۳٦/۳) جاء محلّقاً فی سماء الشـعر محرزاً قصب السـبق وأَجاد فی جمیع أغراض الشـعر العربی وهـذا یدلّ علی غزارة مادته. کان ینظم قصائده لِمنحة نفسـانیة قلّما تؤثر بها العوامل الخارجیة. کان أبوه جلیل القدر عظیم المنزلة فی دولة بنی العباس ودولة بنی بویه وکان من الأجلاء وبهذا توفّرت للشـریف أسـباب النعمة وطلب العلم، فکان لابدَّ له من أن یتعلّـم أنواع المعـارف منذُ صغره، کمـا درس اللغة علی ید ابن جـنی والفقه علی ید شـیخ الإمامیة وعالمهما الشـیخ المفید. (ابن ابی الحدید، ۱۹٦۵م: ۱۳/۱-۱٤) وأحضر الشـریف الرضی إلی ابن السـیرافی النحوی وهو طفل لم یبلغ سنین ولقّنه النحو. (ابن خلکان، لاتا: ٤۵/٤) ولذلک تمکن الشریف من استیعاب العلوم العربیة، وعلوم البلاغة، والأدب، والفقـه، والکلام، والتفسـیر، والحدیث بکاملها فی مدة وجیـزة، وینطلق إلی البحث، والتدریس، وقول الشعر وهو فی أخریات العشر الأول من عمره. یقول الثعالبی عنه: «ابتدأ یقول الشعر بعد أن جاوز عشر سنین بقلیل.» (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۳٦/۳)

جدیرٌ بالذکر أن نشـیر إلی الاغتراب کعنصر أساسـی لِلرثاء فی حیاة الرضی «کان أبوه نقیب الأشـراف الطالبیین فصارت إِلیه النقابة وأبـوه حَیٌّ وتولی معها إِمارة الحَجّ والمظالم؛ وهو أول طالبیٍّ جُعِل علیه السـواد.» (البسـتانی، ۱۹۸٦م: ۱۷۷/۳) لعلّ هذه الأمور فی حیاة الرضی أدت إلی حسادة ونمامة الحساد وبالتالی أَدت إلی اغترابه، إلی

حَد يشكو هو نفسه من حياته ويقولُ (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٥٨/١):

وَمَالِيَ طولَ الدَّهرِ أَمشِي كَأَنَّنِي لِفضلِيَ فِي هذا الزَّمانِ غَريبُ

ترتبط هذه الحسادة فى بعض الأحيان بأقربائه حتى لا يبقى أقرباؤُه بلا نصيب من هذه الحسادة، و الشريف الرضى فى بعض أشعاره يشير إلى هذا الحِقد والكراهية بينه وبين أخيه (المصدر نفسه: ٩٦/١):

وأَخٍ حُرِمتُ الوُدَّ مِنهُ و بَينَنا نَسبٌ قُرابُ

فى نهاية المطافِ «تُوُفِّي الشريف الرضى يوم الأَحد السادس من المحرم سنة ست وأربعمائة ودفن فى داره بمسجد الأنباريين إحدى ضواحى الكرخ "الكاظمية" اليوم. (عمر فروخ، ١٩٧٩م: ٥٩/٣) عندما مات الشريف الرضى رَثاهُ كثيرٌ من الشعراء، ولكنَّ أوّل شاعر رثاه هو أخوه السيد المرتضى الذى نظم مرثية الفراق بهذا المطلع (الشريف الرضى، ١٩٩٧م: ١٣/٢):

يا لَلرِجالِ لِفُجعَةٍ جَذَمت يَدِي وَوَدَدتُ لَو ذَهَبَت على بِرأسِي

ورثاه تلميذه مهيار الديلمى بقصيدة يحفظها أكثر الأدباء (زكى مبارک، ١٩٣٨م: ٢٣١/٢؛ والشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٤٩/١):

أَ قُرَيشُ لا لفَمٍ أَرَاکَ ولا يدٍ فَتَوَاكِلِي،غَاضَ النَدَى وخَلا النَّدِي

إنَّ شعر الشريف الرضى يُعطينا صورة صادقة لسمات شخصيته من ناحيةٍ وسمات عصره من ناحية أخرى بحيث إنّ أشعاره تُعيننا على فهم كثير من أحداث عصره. يمتاز الشريف الرضى بشعره ونثره، و بمكانته فى علوم البلاغة حيث كشف عن مجازات القرآن الكريم والحديث الشريف.

يقول الباخرزى عن شعره: «كان شعره تغنيّاً بحبّه وآلامه ونشيداً من أناشيد الفخر والعزة.» (الباخرزى، ١٩٨٥م: ٢٩٣/١) هو شاعرٌ شيعىٌ مشبوب العاطفة يقول الشعر إرضاءً لنفسه وينبع شعره من ينابيع وجدانه ولم يتخذه وسيلةً للكسب. (عمر فروخ، ١٩٧٩م: ٥٩/٣) لم يقبل صلة من أحد ولا جائزة وردّ صلة أبيه. (ابن ابى الحديد، ١٩٦٥م: ١١/١) «لقد كان الناس فى عهد الشريف يتفقهون ليعيشوا، أمّا هو فكان يتفقه ليسود. كان الشعراء فى عهد الشريف ينظمون الشعر ليحظَوا بأعطيات الخلفاء، أَما هو

فکان ینظم الشعر لیزلزل الرواسی من عروش الخلفاء.» (زکی مبارک، ۱۹۳۸م: ٤٨/١) کما یقول حنا الفاخوری: «لم یقبل صلة من أحدٍ ولا جائزة وکان یُرشح نفسه للخلافة.» (حنا الفاخوری، ۱۳۷۸ش: ٤٩٣)

الشریف الرضی شاعرٌ مقتدرٌ وفقیهٌ عالمٌ ولذلک لُقّبَ بالشاعر الفقیه؛ لِأنَّه إلی جانب الاستدلالات العلمیة والفقهیة کان یستفید من سلاح الشعر لبیان أغراضه ومقاصده ولذلک حُساده فی أیام عمره القصیر لم یستطیعوا أن یمنعوا من ازدهاره العلمی والأدبی. إنَّ الشریف الرضی قد تأثر فی أشعاره بالمتنبی لا سیما فی شکاواه من الزَّمَن وکان یری ویعتقد أنَّ الزّمان سبب فشله فی الوصول إلی الخلافة ولذلک أُصیبَ بخیبَة أمله وهو فی هذا الصعید شبیهٌ بأستاده المتنبی؛ لِأنَّ المتنبی کان یسعی فی تألیف دولة عربیة کما أنَّ النزعة القومیة العربیة فی شعره مشهودةٌ، والشریف الرضی أیضاً کان یفکر بالخلافة ولکن کلاهما أصیبا بخیبة الأملِ. (شوقی ضیف، ۲۰۰۷م: ۳۷۲/٥)

هو شاعر الحکمة ولا یعمدها کما یقول الدکتور زکی مبارک: «فقد أستطیع أن أجزم بأنه فی هذه الناحیة أشعر من أُستاده المتنبی؛ لِأنّ المتنبی کان یقصد إلی الحکمة قصداً ویتعمدها وهو متکلفٌ، أما الرضی فکانت الحکمة تسبق إلی خاطره من فیض السجیة والطبع فیرسلها عفواً بلا تصنع ولا اعتساف.» (زکی مبارک، ۱۹۳۸م: ٢٤/١) وحکمته مطبوعة بطابع نهج البلاغة والقرآن الکریم لأنّه کان مُعِدّ نهج البلاغة ومفسر القرآن الکریم.

قد خصّ الشریف الرضی قسماً آخر من دیوانه بالفخر وفخریاته قد جاءت فی أثناء قصائده أو بشکل قصائد مستقلة، فعلی أی حال «شعر الشریف الرضی فی أیّ نوعٍ کان تسوده روح الفخر وعزة النفس والشکوی من الزّمان والشیب، قلما تجد له قصیدة فی مدح کانت أو رثاء أو فی غیرها إلا رأیت روح الفخر تَرشَّح فیها.» (البستانی، ۱۹۸٦م: ۱۷۷/۳)

إنّ شعر الشریف الرضی کان سبباً فی انطفاء حرارة طموحه إلی المعالی ولم یتکئ علیه لغرض المدح أو الثناء، إنَّما انقاد إلیه لضرورة الفارضة التی حملته إلی هذا الاتجاه نحو تحقیق طموحه وغایاته و«إلا فهو أحد علماء عصره قرأ علیه أجلاء الأَفاضل.» (ابن عنبه، لاتا: ۲۳۲)

يقول ابن سينا: «الشعر لا يتمّ إلا بمُقدمات مُخيلة ووزن ذى إيقاع متناسب ليكون أسرع تأثيراً فى النُفُوس.» (ابن سينا، ١٩٦٩م: ٢٠) يوجد فى شعر الشريف نماذج رائعة تؤيد كلام ابن سينا لاسِّيما فى نظمه قصيدة سمَّاها بـ «العَصماء» ومِنها البيت التالى الذى نكتفى به دليلاً على ذلك (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٩٣/٢):

يا ظَبيَةَ البَانِ تَرعَى فِي خمَائِلِه لِيَهنَكِ اليَومَ أنَّ القَلبَ مَرعَاكِ

يقول زكى مبارك عن أبيات هذه القصيدة: «يرينا الشاعر فى هذه الأبيات أن الحلاوة فى عيون النساء أمتع من الحلاوة فى عيون الظباء والحق فى هذه القضية أنّ عيون الغزلان فى غاية من الروعة، ولكنها محرومة من صفة أساسية فى عيون الملاح، وهى الإفصاح؛ ذلك لِأنَّها تتمتع بصفة الإفصاح فعين الظبية تروعك، ولكنَّها لا تحدّثُ، أما عين المرأة فتروعك وتُفضى إليك فى لحظة بألف حديث وحديث.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ١٣٩/٢) ولعلّ الشريف قصد إلى ذلك حين قال: فكان الفضل للحاكى (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٥٩٣/٢):

حَكَت لِحاظُك مَا فِي الرِّيمِ مِن مُلَحٍ يومَ اللِقَاءِ فَكَانَ الفَضلُ لِلحَاكِي

التعريف بفن الرثاء لغة واصطلاحاً

١. الرثاء لغةً:

يقال رثى فلانٌ فلاناً يرثيه مرثيةً إذا بكاه بعد موته قال: فإن مدحه بعد موته قيل رثّاه يرثيه ترثيةً ورثيتُ الميّت رثيثاً ورثاءً ومرثاةً ومرثيةً ورثيته: مدحته بعد الموت وبكيتهُ ورثوت الميت أيضاً إذا بكيته وعدّدت محاسنه وكذلك إذا نظمت فيه شعراً ورثت المرأة جعلها ترثية ورثيته ترثاة رثايةً فيهما. (الزبيدى، ١٤٢٢ق: مادة رثا)

٢. الرثاء اصطلاحاً: هو تعداد خصال الميت والتفجع عليه بماكان يتصفه به من صفات كالكرم، والشجاعة، والعفة، والعدل، والعقل، وإظهار الحزن، واللوعة، والحسرة على فقدانه شعراً كان أم نثراً. يستعمل الرثاء بحتمية الموت كما يقول طرفة بن العبد فى فلسفته الشخصية المتناقضة التى تصطبغ بصبغة اليأس (الزوزنى، ٢٠٠٦م: ٩٠):

لَعَمرُكَ إنَّ المَوتَ مَا أخطَأَ الفَتَى لَكالطِّوَلِ المُرخَى وثِنياهُ بِاليَدِ

الرثاء عند الشریف الرضی

من یلاحظ أشعار الرضی یری أنّه أمام شاعر کثیر البکاء علی الراحلین، کثیر التعزیة لأقاربه وأصدقائه ممّن فقدوا أحبابهم. إنَّ الشریف الرضی کما جاء فی ترجمته کان کثیر الصلة علی حسب مقتضی حیاته بکبار الرجال ممّن یعاصرونه ومن الطبیعی أن یستمرّ هذه الصلة بعد موت هولاء الکبار ویتذکرهم ویرثیهم ویتألم لفقدهم لذلک کان الرثاء متنفساً لِآلامه، وأحزانه، ووفائه، وإلحاحه فی التحسّر علی فقدهم. قد لفتت کثرة مراثی الرضی، الّتی بلغت إحدی وثمانین قصیدة ومقطوعة، بحرارة عاطفتها نظرَ الأدباء والمؤرخین، قال الثعالبی: «وهو أشعر الطالبیین من مضی منهم ومن غبر علی کثرة شعوائهم المفلقین. ولو قلت أنّه أشعر قریش لم أبعد عن الصدق.» (أحمد حسن الزیات، لاتا: ۲۰۸) ثم قال بعد ذلک: «لست أدری فی شعراء العصر أحسن تصرفاً فی المراثی منه.» (الثعالبی، ۱۹۸۳م: ۱۳۱/۳) «إنّ تفجع الرضی لم یکن محدود الإطار ضیق النطاق، ینحصر فی الأصدقاء والأقرباء المعروفین فحسُب، بل کان یتفجع ویبکی حتّی الّذین لم تربطه بهم صلة وثیقة أو علاقة ودّیة صمیمة.» (عزیز، ۱٤۰٦ق: ٤٤) وهنا نستطیع أن نقول «لعلّ أکبر عنصر متغیر فی مراثی الرضی هو ملائمة لمقتضی الحال فإن کان الراحل فارساً أو کاتباً أو شیخاً نحویاً، أو أستاذاً فقیهاً أو متکلماً أو شاعراً، رجلاً کان أو امراة، حضریاً أو بدویاً، فإن رثاء الرضی یراعی ما یلائم شخصیة الراحل من حدود وأوصاف ویزید علی ذلک التزام شیء من الأسلوب قد یلیق بالبدوی أکثر من الحضری (کما هو الحال فی مراثیه لصدیقه البدوی ابن لیلی) وبالفارس أکثر من الکاتب، من هنا نری أن الرضی جدّ فی المعانی والأسلوب علی حد سواء.» (أبوعلیوی، ۱۹۸٦م: ۵۸۲/۲) إنّ الشریف الرضی فی قصائده الرثائیة لم یفرق بین الأفراد من حیث المنزلة السیاسیة والاجتماعیة بل تزداد مراثی الرضی حرارة وحزنا عمیقا علی قدر علاقته بالمیت والتصاقه بمودّته وصداقته، کما نراه یرثی أبا إسحاق الصابی رغم الاختلاف الدینی بینهما، بأبلغ الرثاء ولم یأبه لنقد الناقدین؛ لأنّ الصابی من أصدقائه المخلصین وهو الّذی طالما أثار فی نفس الشریف الطماح نحو المجد والخلافة وجعله یرمی ببصره نحو آفاق سامیة ولذلک رثاه الرضی لما توفی ببغداد عام ۳۸٤ق، کما رثی أباه بأسلوب

حزين ثائر، بقصيدته المشهورة التى أولها، قوله (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٩٤/١):

أعَلِمتَ مَن حَمَلُوا على الأعوَادِ أرَأَيتَ كَيفَ خَبَا ضِياءُ النَادِى

لم يكن الرثاء عند الشريف الرضى مقتصراً على الرجال المرموقين البارزين، بل كان يرثى حتى المغمورين من أصدقائه ممن لم يشغلوا مناصب هامة. كما نلاحظ رثاءه لصديقه البدوى أبى العوّام فى سنة ٣٩٣ق بقصيدة، هذا مطلعها (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٨٢/١):

أُدارِى المُقلَتَينِ عَن ابنِ لَيلَى ويأبَى دَمعُها إلّا لِجاجَا

إنّ ديوان الرضى مشحونٌ بقصائد الرثاء وكان الشاعر معروفا بالرثاء واشتهاره بالرثاء أكثر من كل أغراضه الشعرية بحيث نستطيع أن نقول إنّه شاعر الرثاء بلا منازع، يقول عنه ابن أبى الحديد فى مقدمة نهج البلاغة: «وإن قصد فى المراثى جاء سابقاً والشعراء منقطع أنفاسها على إثره.» (ابن أبى الحديد، ١٩٦٥م: ١٥/١)

ولقد كان الرضى «فى علاقاته الاجتماعية وفياً إلى أبعد الحدود وهذا ما يفسر إلحاحه الشديد فى رثا أقاربه وأصدقائه، ولم يكن يقنع فى رثاء من يحبّهم بقصيدة واحدة -كما جرى العرف بين الشعراء- ولكنه بكى الكثيرين منهم بحرارة وعاطفة جياشة بأكثر من قصيدة، كما فعل فى رثاء ابن ليلى صديقه البدوى، والطائع العباسى، وأبى إسحاق الصّابى، والحمدانى، وبهاء الدوله وغيرهم من أصدقائه.» (أبوعليوى، ١٩٨٦م: ٤١٦/٢)

لقد وجد الشريف الرضى فى الرثاء متنفساً لآلامه وأحزانه وإخفاقه فى تحقيق طموحه فى الحياة، يضاف إلى ذلک وفاؤه للذين يرثيهم حتى بعد موتهم وإلحاحه فى الحسرة على فقدهم، كما يضاف إليه منهجه الجديد فى رثائه للحسين بن على (ع) الّذى كان يفتخر به وبأهل بيته ويذكر قبورهم ويتشوق إليها. هذه العوامل النفسية كلّها دفعت الرضى إلى الإجادة والإكثار فى هذا الفن وامتزج بمأساة الموت، واستحقّ أن يسمّى: "النائحة الثكلى". (الصفدى، ١٩٩١م: ٣٧٤)

إنَّ مراثى الرضى -مثل مدائحه- متعددة الأغراض، فالمرثية تتألف من عدة فنون أبرزها: الوصف، والشكوى، والفخر، والحكمة، فضلاً عن الأبيات المفردة. ويلاحظ أنّ مراثى الشريف كلما كانت متعلقة بشخص شديد الصلة به، كأبيه وأمه، كلما زادت أبيات

الفخر فیها، والملاحظة البارزة أیضا أن الرضی یتفلسف فی مرثیته واعظاً ناصحاً، مفتتحاً بعض القصائد الرثائیة بخواطر الموت وحتمیته وعدم الجدوی من البکاء. (أبوعلیوی، ۱۹۸٦م: ٤۳۲/۲) والرثاء عنده لیس علی نسق واحد، فهو یتفاوت بتفاوت الذین یرثیهم قرباً أو بعداً من نفسه کما یتفاوت عدد الأبیات. مثلا فی رثائه لوالدته کان یرثیها ثم یجیء بعد رثائها بالفخر، حیث إنّه فی سنة ۳۸۵ق رثی والدته فاطمة بنت الناصر بقصیدة مطلعها (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۸/۱):

أَبکِیکِ لَو نَقَعَ الغَلیلُ بُکَائِی وَأَقُولُ لَو ذَهَبَ المَقالُ بِدَائِی

«فتقع فی ثمانیة وستین بیتاً تتوزّع علی النحو التالی: ۳۱ رثاء، ۲۱ وصف، ۹ شکوی، ٦ فخر، ۱ ذم الزمان.» (أبوعلیوی، ۱۹۸٦م: ٤۳۱/۲)

ثم یفتخر بوالدته وبآبائها ویعدّ فضائلهم الأخلاقیة وأفعالهم البارزة وأنّهم کانوا قد بلغوا غایة المجد، والفضل، والشرف ولا یدانیهم أحدهم فی النعمة والجود (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۲۰/۱):

آباؤُکِ الغُرُّ الذینَ تَفَجّرت بِهِم ینابِیعُ مِن النَّعَمَاءِ

یرثی الشاعر فی هذه القصیدة والدته أوّلاً ثم یفتخر بآبائها. وأما بالنسبة إلی الآخرین فالحال یختلف، فإذا کان المتوفی مثلاً من أصدقائه أو من الکبار فإنّه یرثیهم أولاً ثم یقوم بوصفهم، کما یرثی أبا طاهر إبراهیم بن ناصر الدولة الحمدانی فی سنة ۳۸۲ق بقصیدة مطلعها (المصدر نفسه: ۳۷۸/۱):

أَلقِی السِّلاحَ رَبِیعَةَ بنَ نِزارٍ أَودَی الرَّدَی بِقَرِیعِکَ المِغوَارِ

«فتتالف من تسعة وخمسین بیتاً تتوزّع علی: ۳۳رثاء، ۲۲ وصف، ۳ شکوی، ۱ مفرد.» (أبوعلیوی، ۱۹۸٦م: ٤۳۰/۲) فتکلم عن شجاعته فی ساحات القتال وقال إنّ ساحات القتال لا تری بدیله أبداً. ثمّ قام بوصفه بعد أبیاته الرثائیة وتکلم عن شجاعته وبطول باعه فی معارک الحرب (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۳۷۹/۱):

مِن مَعشَرٍ غُلبِ الرِّقابِ جَحَاجِح غَلَبُوا علی الأقدَارِ والأَخطَارِ

ونستطیع أن نقول إنّ مراثی الشریف الرضی فی أهل البیت (ع) وأسرته تبدأ أولاً بالرثاء ثم الفخر وأما قصائده الرثائیة فی أصدقائه والکبار والعلماء والآخرین یکون

أولاً الرثاء ثم الوصف.

إنَّ الموت عند الرضى حقٌ وهو يعلم أنّ الطريق الوحيدة التى تُهوِّنُ على الإنسان فقد الأحبة هى أن يعلم الإنسان وبكل إيمان أن الأرواح والأجسام ليست غير أمانة وعارية عند الإنسان. (المصدر نفسه: ٢٩٢/١):

نَعُضُّ على المَوتِ الأَنامِلَ حَسرَةً وَإِن كانَ لا يغنِي غِناءً ولايجدِى
وَهَل ينفَعُ المَكلُومَ عَضُّ بَنانِهِ وَلَو مَاتَ مِن غَيظٍ على الأَسَدِ الوَردِ
عُوارٍ مِنَ الدُّنيا يهَوِّنُ فَقدَهَا تَيَقُّنُنَا أَنَّ العَوَارِى لِلرَدِّ

وهو فى شعره الرثائى «لايتعمد الرثاء ككثير من الشعراء إلى العبرة بالدهر والماضى وطلب العزاء وذكر مناقب المرثى، وإنما يشعرك فى أول قصيدة بمصابه هو، وتلتحم المعانى التحاما، فأنت حقّا تستمع إلى النائحة الثكلى.» (محمد حلو، ١٩٨٦م: ٢٣٢/٢)

إنّ من أهم دواعى الحزن والمأساة عند الرضى هو استضراء الفساد الخلقى، والتفكك الاجتماعى، وانتشار الفتن بلحمة المجتمع «ولذا يعكس ببراعة تامة ما كان عليه المجتمع من الغدر، وعدم الالتزام بالعهود، والانحطاط، والدناءة، وما كانت تنطوى عليه ضمائرهم من أضغانٍ وسخائم.» (عزيز، ١٩٨٥م: ٤٤)

لأَى حَبِيبٍ يحسُنُ الرَأىَ والوُدُّ وَأَكثَرُ هذَا الناسِ لَيسَ لَهُ عَهدُ
أَرَى ذَمِّى الأَيامَ مَا لايضُرُّهَا فَهَل دَافعٌ عَنِّى نَوَائبِها الحَمدُ
مَا هَذِهِ الدُّنيا لَنَا بِمُطِيعَةٍ وَلَيسَ الخَلقُ مِن مُدارَاتِها بُدُّ
(الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٢٥٨/١)

الجانب الآخر من رثاء الرضى هو إنّه يستخدم فى قصائده الرثائية، الحكمةَ، والوصفَ، والهجاءَ، والفخرَ فى رثائه ويكوّن قصيدة مزيجة من الفنون المختلفة، مثل الشريف الرضى فى هذا المجال مثل الصيدلى يحسن تركيب الدواء، فهو شخصٌ مسؤولٌ يركّب الدواء بالمقادير معينة ومحدّدة يؤخذ بعضها بالقطارة وبعضها بالميزان، وهو يعلم أنّ الدواء لو نقص منه جزء أو زيد عليه جزء لأصبح ضاراً أو غير مفيد.» (زكى مبارك، ١٩٣٨م: ٢١٢/١)

إنّ كتب التاريخ، والسّير، والأدب من عصر الرضى إلى العصر الحاضر متفقةٌ على

أنّه شـیعی إمامی، من أسـرة شـیعیة إمامیة، ولاغبار علی معتقده إطلاقاً، ولکنَّ بعض المؤلفـین رماه بالزیدیة والاعتـزال لکی یبرّر طلبه للخلافـة. (عبدالرزاق محی الدین، ۱۹۷۷م: ۷۵) یقول الدکتور زکی مبارک: «مثل الشریف بین أهل التشیع کمثل الجاحظ بـین أهل الاعتزال، فالجاحظُ لایدرک مرامیه غیر الخواص، کذلک الشـریف لایدرک مرامیه غیر الخواص.» (زکی مبارک، ۱۹۳۸م: ۲۱۲/۱) وله فی بکاء الإمام الحسین(ع) خمـس قصائد طوال جمیلـة «الأولی رائیة نظمها سـنة ۹۸۷/۳۷۷ والثانیة لامیة قالها سـنة ۹۹۷/۳۸۷، والثالثة هائیة نظمها سـنة ۱۰۰۰/۳۹۱، و الرابعة دالیة قالها سـنة ۱۰۰٤/۳۹۵، و الخامسة مقصورة لم یذکر لها تأریخ، و یقال: إنّها آخر ما قاله من الشعر، وإنّها ربّما کانت منحولة.» (أبوعلیوی، ۱۹۸٦م: ٤۲۱/۲) والتشـکیک فی نسـبتها یأتی: من أنّها لینة لا تشـبه شعره. (عبدالفتاح الحلو، ۱٤۰٦ق: ۱۷۰/۱) إنّ الشریف فی أبیاته فی رثاء جده سید الشهداء (ع) یتخذ موقفاً سیاسیاً ویعرج علی بنی أمیة، مهدداً متوعداً بیوم عظیم، «فالمهدی المنتظر (ع)» موتور، شـاهراً سیفه فی أقاصی الأرض. و أسلوب الرضی هنا رمزیة؛ إذ عبر عمن یخالف العلویین الخلافة بالأمویة، سـواء کان بویهیا أم عباسیا (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۳۷۷/۱):

بَـنِي أُمَیةَ مـا الأَسـیافُ نائِمَةٌ عَن شَاهِرٍ فِی أَقاصِی الأَرضِ مَوتُورِ

المعانی المطروحة فی قصائد الشریف الرضی الرثائیة

۱. الشـکر: من المعانی الرثائیة المطروحة فی شـعر الشریف الرضی إنّه کان یعادی، ویصادق، ویعی حقوق الأصدقاء کاملاً ویعاملهم أحسن معاملة، و یحفظ کرامة الصدیق فی حضوره وغیبته (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ٥٦۱/۲):

أنا مَـولَی العِدَی وَإن کُنتُ عَبـدَ الأَصادِقِ

کمـا یلاحظ هـذا الإیفاد والاحتفـاظ فی حق صدیقه أبی إسـحاق الصابی ویبقی الشـریف یذکر صدیقـه بأحقّ الذکر ولمّا مـات الصابی رثّاه أکثر من مـرة، مع ماکان بینهمـا مراتب من الاختلاف فی العقیدة؛ لأنّه لم یکن مسـلماً وکان یدین بدین الصابئة (کحالـة، ۱۳۷۲ش: ۱۲٤/۱؛ التونکـی، ۱۳٤٤ق: ٤٦۷/٤) وکان کلما رثّاه نصّ علی قلمه وبلاغته (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۲۹٦/۱):

ثَكَلَتكَ أرضٌ لمَ تَلِد لَكَ ثانياً أَنَّى ومِثلُـک مُعـوزُ المِيـلادِ
مَن لِلبَلاغَةِ والفَصَاحَةِ إن هَمَى ذاکَ الغَمامُ وعَبَّ ذاکَ الوَادِی

وتستمرّ هذه الرابطة ويدلّ على عمق هذه الرابطة بالمشاعر النابضة وحين يمرّ بعد عشر سنوات على قبر صديقه، ولا شک أنّه دارس فتثير فيه عهود الصداقة العواطف الّتی تفيض بداهة، و ما أحلی ماينشدُ (المصدر نفسه: ٥٧١/٢):

لَولا يذَمُّ الرَكْـب عِندَکَ مَوقِفی حَييـتُ قَـبرَکَ يا أبا إسـحَاقِ
کَيفَ اشتِياقُکَ مُذ نَأَيتَ إلی أَخٍ قَلَـقِ الضَمِيرِ إلَيکَ بِالأَشـوَاقِ
أَمضَـی وتَعطِفُنِی إلَيـکَ نَوَازِعٌ بِتَنَفُّـسٍ کَتَنَفُّـسِ العُشَـاقِ

ولا يفوتنا بأنّ اهتمام الرضی بمدح ابن جنّی ورثائه موصول الأواصر بحياته الأدبية فقد کان ابن جنی، أستاذ الرضی شرح قصيدته الرائعة فی رثاء إبراهيم بن ناصرالدولة الحمدانی، وهذا مطلعها (المصدر نفسه: ٣٧٨/١):

أَلقِی السِّـلاحَ رَبِيعَةَ بنَ نِزارِ أَودَی الرَّدَی بِقَرِيعِکَ المِغوَارِ
وتَرَجَّلِی عَن کُلِّ أَجرَدَ سَابِحٍ مِيلَ الرِّقَابِ نَوَاکِسَ الأبصَارِ

إنّ الشـريف الرضی قد مدح ابن جنی ورثّاه؛ لأنّه شـرح إحدی قصائده فی الرثاء وکذلـک فعل مع الصاحب بن عباد، فقد بلّغه أنّ شـيئاً من شـعره وقع إليه فأعجب به وأنفذ إلی بغداد لاستنساخ سائر شعره فلما بلّغه ذلک أخذ منه الطرب کل مأخذ، ومدح الصاحب بن عباد بقصيدة بارعة ولکنّه أخفاها منه خوفاً من طلب العطاء به (الشريف الرضی، ١٣٠٧ش: ٢٢٥/١):

بَيـنِی وبَينَـکَ حُرمَتَـانِ تَلاقَتَا نَثرِی الّذی بِکَ يقتَدِی وقَصِيدِی
إن أُهـدِ أَشـعَارِی إلَيـکَ فَإنَّهُ کَالسـرِدِ أُعَرِضُـهُ علـی دَاوُدِ

والرضی يقتدی به فی شـعره ونثره فبينهما صلات الأدب، فإذا أهدی إليه أشـعاره فکأنه يعرض السّرد علی داود.

٢.الالتـزام بالتشـيع: يزخر ديوان الشـريف بقصائد الرثـاء وإلی جانب رثائه فی الأصدقـاء والأحباء، ظهرت قصائده الرثائية تفيض بالعواطف والمشـاعر الجياشـة، وقدّم قصائد رائعة فی رثاء الإمام الحسين (ع): تلک المراثی القليلة الّتی تجعل الشريف

الرضی تبرز بین معاصریه وشعراء الشیعة. وعندما ننظر إلی هذه القصائد نری فیها طبیعة التفکر الشیعی (المصدر نفسه: ۳۳/۱):

کَربَلا لازِلت کَرباً و بَلا مَالَقِی عِندَکَ آلُ المُصطَفَی
کَم علی تُربِکَ لَما صُرِّعُوا مِن دَمٍ سَالَ وَمِن دَمعٍ جَرَی

فالشریف الرضی شاعرٌ شیعی ملتزمٌ مؤمنٌ بمذهب آل البیتً (ع) ویعمل علی نشر فضائلهم ویتألم لآلامهم، ولکنّ ذلک لا یمنعه من احترام الآخرین وتجلیلهم وینشد عن "الغدیر" (المصدر نفسه: ۳۳۰/۱):

غَدَرَ السُرُورُ بِنَا ووَفاؤُهُ یومَ الغَدِیر یومَ أَطَافَ بِهِ الوَصِی وقَد تَلَقَّبَ بِالأَمِیرِ

وفی موضع آخر نجده یمدح الفاطمیین رغم أنه کان یعیشُ فی دولة العباسیین. (المصدر نفسه: ۲۳۸/۱) ولعله یکون صحیحاً ما قیل «إنَّ اهتمامه بشرح خصائص البلاغة القرآنیة والبلاغة النبویة هو دحضٌ للمفتریات الّتی وجّهت إلی التشیع والّتی ادّعت أنّ الشیعة لا یهتمون بالقرآن والحدیث.» (زکی مبارک، ۱۹۳۸م: ۲۱۲/۱) ومن هنا نفهم أنّ الشریف الرضی کان معلماً عظیماً وکان من الساهرین علی رعایة الوحدة الاسلامیة. یقول الدکتور عبداللطیف عمران: «إنّ الشریف الرضی موضوعی فی تشیعه، بعیدٌ عن الفتن والمیول الذاتیة، إنّه مسلمٌ فی الدرجة الأولی، یری فی الرسول(ع) أوّل عظماء المسلمین وأفضلهم ویری فی علیّ (ع) الرجل الثانی وهذه الموضوعیة لم تصرفه عن مدح أو رثاء بعض خلفاء بنی العباس کمدح الخلیفة الطائع ورثائه.» (عمران، لاتا: ۲۳۹) إنّ الشریف الرضی فی سبیل تشیعه یهجو بنی أمیة ویقول: «إنّ الخلافة أصبحت بعیدة عن الشعب منعزلة عن الناس والمجتمع قد استولی علی منابرها الأمویون.» (نورالدین، ۱٤۱۱ق: ۱٤۰) کما نری هذا المعنی فی أشعاره فی رثاء الإمام الحسین(ع) (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۲۸۰/۱):

إنَّ الخِلَافَةَ أَصبَحَت مَزوِیةً عَن شَعبِهَا بِبَیاضِهَا وسَوَادِهَا
طَمَّسَت مَنابِرَهَا عُلُوجُ أُمَیةٍ تَترُوا ذِئابِهُمُ علی أَعوَادِهَا

۳.تعداد خصال الفقید وصفاته: رثّی الرضی عمر بن عبد العزیز من ملوک بنی أمیة؛ لأنّه تفرّد بالصلاح، والعدل، وجمیل السیرة من أهل بیته، کما أثنی علی رفقه بأهل

البيت(ع) وأشار إلى منعه لتلك العادة الّتى درجت فى عهد الأمويين، وهى سبّ الإمام على بن أبى طالب(ع) على المنابر، بقوله (المصدر نفسه: ١٦٩/١):

يا ابنَ عَبدِالعَزيز لَو بَكَتِ العَيـ ـنُ فَتىً مِن أُمَيـةٍ لَبَكيتُك
أَنتَ نَزَهتَنا عَن السَبِّ والقَذ ف، فَلَو أَمكَنَ الجَزاءُ جَزيتُك

رثى الرضى أبا على الحسن بن أحمد الفارسى النحوى وأشاد فيها بقوة الفارسى فى مقارعة الخصوم. وفى مرثيته لشـرف الدولة البويهى المتوفى سنة ٣٧٩ق ذكر الشريف فى رثائه مجده عليه وعلى أبيه (المصدر نفسه: ٨٤١/٢):

أَعَادَ عِـزَّ أَبِى غَضّـاً وخَوَّلَهُ مَا شَاءَ مِن بَذلِ إِعزَازٍ وإِكرَامِ

وفى رثائـه لصديقه أبى منصور المرزبان الكاتب الشـيرازى توقف الرضى عند أيام الصداقة وحنَّ إلى المجالس الأدبية الرائعة (المصدر نفسه: ١٢٤/١):

كَـم مَجلِـسٍ صَبَّحَتهُ ألسُـنُنا تَفُـضُّ فِيـهِ لَطائِـمَ الأَدَبِ

وبموته غاض غدير الكلام، وهوى علم المجد وكان قرينه ونسيبه (المصدر نفسه: ١٢٤/١):

كُنتَ قَرِينِى ولَسـتَ مِن لِدَتِى كُنتَ نَسِيبِى ولَستَ مِن نَسَبِى

وفى مراثيه الثلاثة لصديقه الكبير أبى إسـحاق الصابى، شبّهه بالمرثية الأولى بالطود الشامخ، وبالضياء المنير (المصدر نفسه: ٢٩٤/١):

أَعَلِمتَ مَن حَمَلُوا على الأَعوَادِ أَرَأَيتَ كيفَ خَبَا ضِياءُ النَّادِى

وفى مرثيته لأمّه عدّد الرضى لنا صفاتها ومناقبها فهى: عفيفة زاهدة مؤمنة، اشترت رغد الجنان بعيشة خشناء، فهى أمّ بارّة، فضلها خالد ومعروفها لا يقدّر (المصدر نفسه: ١٩/١):

لَـو كَانَ مِثلُـكِ كُلُّ أُمٍ بَـرَّةٍ غَـنِيَ البَنونُ بِهَا عَـنِ الآبَاءِ
كَيفَ السّـلوُّ وكُلُّ مَوقِعِ لَحظَةٍ أَثَـرٌ لِفَضلِكِ خَالِـدٌ بِإِزَائِى

إنّها نجيبة ولدت النجبـاء، وآثار أيديها البيضاء تظهر فى الضيق والأزمات ثم مدح آباءها وافتخر بهم. وفى مراثيه لوالده عدّد الرضى مناقبه، فقد مضى الموسوى نقى الثوب والعود، فقد أغمد المهنّد فى الثرى بعد أن ملأَت فضائله البلاد (المصدر نفسه:٧٣٩/٢):

حَمَـلَ العَظَائِمَ والمَغَـارِمَ ناهِضاً ومَضَى على وَضَحِ الطَرِيقِ الأَقوَمِ

ثم مدح فضله وأعماله المجيدة وافتخر به فكان يرتجى فى المَلمّات لِرأب الصّدع، فهو الطاهـر بن الطاهر يصل إلى جـذم النبوّة، كما افتخر بآبائه ومكانتهم، وبلغ الفخر مداه

بقوله (المصدر نفسه: ٧٤١/٢):

لا تَحسَبنَّ جَدَثاً طَوَاهُ ضَرِيحُهُ قَبراً، فَذَاکَ مَغارُ بَعضِ الأَنجُمِ

٤. التعزية والمواساة: «لجأ الرضی فی معظم مراثيه إلی تعزية ذوی الفقيد، وأقاربه، وأصدقائه، ومواساتهم، متسائلاً عن مصير القرون والعظماء. ففی تعزيته للخليفة الطائع عن ابنه أبی الفتح، دعاه إلی الصبر والسلوی؛ لأنَّ الابن يمكن أن نجیء بمثله، بينما الخسارة الحقيقية هی خسارة الآباء.» (أبوعليوی، ١٩٨٦م: ٤٤٧/٢) ويعتقد الشريف الرضی بأنّ العزاء الحسن يكون بحسن استخدام العقل (الشريف الرضی، ١٣٠٧ش: ٦٦٣/٢):

إذا لم يكُن عَقلُ الفَتَی عَونَ صَبرِهِ فَلَيسَ إلی حُسنِ العَزاءِ سَبِيلُ

لعلَّ الشريف الرضی بهذا البيت يشير إلی تأثره بلامية السموأل بن عادياء المشهورة "إنّ الكرام قليلُ" وهو شاعرٌ يهودی عاش فی العصر الجاهلی. و فی مرثيته للصاحب بن عباد، تساءل الرضی فيها كيف طوی الموت الأمم الغابرة، والملوک، والسّادة من نِزار، ويمن، وبنی المنذر، والفرس. كذلک فی مرثيته لأستاذه ابن جنّی، فقد شكا من الفناء، ومضی مكثراً من تسائله «أينَ؟» مثل قوله (المصدر نفسه: ٥٦٣/٢):

فَأَينَ المُلُوکُ الأَقدَمُونَ تَسَانَدُوا إلی جِذمِ أَحسَابِ كِرامِ المَعَارِقِ

هكذا ساقَ الرضیُّ الحكمةَ والموعظة وأورد الحججَ المنطقية ليدخل العزاء والسلوان إلی قلوب المفجوعين بموت أحبتهم وأعزّتهم.

٥. فداء الرّاحل وتحدّی الموت: كثيراً ما يتمنی الشريف الرضی دفع الموت فی مرثياته وفداء الرّاحل أو الرّاحلة بنفسه، أو بفتيانه المدجّجين والمجرّبين فی الحروب وساحات الوغی، فكأنّه يتصدی الموت بقسوته. و نری هذا المعنی فی رثاء صديقه أبی إسحاق الصابی ويكرر نفسه فی رثاء أمه، فتمنی لو كانت تفدی، إذن لفداها بالفتيان المدرّبين علی القتال، كما تمنّی أن يفديها بنفسه. وفی مرثيته لصديقه عبدالعزيز بن يوسف الحكّار افتتحها بقوله (المصدر نفسه: ٤٧٩/١):

لَوكَانَ يرتَدِعُ القَضَاءُ بمُردعٍ أو ينثَنِي بمُدَجَّجٍ ومُقَنَّعِ

فقد جاءَ بالمعنی الّذی استغلّه كثيراً من قبل، وهو تمنّية أن يفدی الرّاحل، إذن لدافع عنه بالفرسان المدجّجين بالسِّلاح.

٦. الموت وحتميته فى شعر الشريف الرثائى: كفاكم قول الشريف بأنّ الموت لامحالة قادمٌ، وكلّنا سنموت؛ وليس هناك تفضّل مُثرٍعلى فقيرٍ، ولكلّ واحد منّا عند الموت كفنٌ واحدٌ، وبذلک لايظلم الموت أحداً:

ألا يا مَوتُ لم أرَ مِنکَ بُدّاً أَتَيتَ، وَمَا تَخِيفُ ومَا تُحَابِى

«ترتبطُ أفكار الرضى عن الزمن مأســاويته ارتباطاً قوياً بأفكاره عن الموت، بل إنّ الشاعر المرهف الحساس والمبدع يرى فى الموت السبب الأوّل لاغترابه الروحى يتحدث عن الموت.» (عزيز، ١٩٨٥م: ٣٥) الموت حتمى على كلّ نفس، فهو يغزو بجيشه كلّ يوم، ولا يرضى بالفداء، أو بالأسرى والسَّبايا (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ٩٧٣/٢):

مُغِيرٌ لايفادَى بِالأَسَارَى وسَابٍ لا يُمُنُّ على السَّبايا

كثيراً ما يدعو الرضى إلى النّفور من الدنيا وتركها، وعدم التّعلق بأثوابها وزخرفها، فهو يراها امرأةً كثيرةَ الأزواج (المصدر نفسه: ١٨٦/١):

إنِّى إذا حَلَــب البَخِيــلُ لُبَانَهَــا أُمسِــيتُ أَحلِبُهَــا دَمَ الأَوداجِ

خَطَبَتنِى الدُّنيا فَقُلتُ لَهَا ارجِعِى إنِّى أَرَاکِ كَثِــيرةَ الأَزوَاجِ

كما يبدأ مراثيه بخواطر فلسفية وحكمية حول حتمية الموت وقسوته، والشكوى من صروف الدَّهر، وعدم جدوى البكاء والعويل كما فى مرثيته لعمر بن إسحاق بن المقتدر المتوفى سنة ٣٧٧ق (المصدر نفسه: ٦٦١/٢):

أَيرجِــعُ مَيتــاً رَنَّــةٌ وعَوِيلُ ويشفِى بِأَسرَابِ الدُّمُوعِ غَلِيلُ

حيث تحدّث بإطناب عن مصير الإنسان فالعمر قصير ولن ينال الفتى فى العيش فوق عمره كما أنّ الفناء غاية الناس جميعاً. إنّ الشــريف الرضى نثر شــيئاً من فلسفته حول الموت وحتميته، وبطشه، وقسوته فى رثائه لأبى طاهر إبراهيم بن ناصرالدولة الحمدانى المتوفى سنة ٣٨٢ق كقوله (المصدر نفسه: ٢٨٣/١):

تَفُوزُ بِنَا المَنُونُ وتَســتَبِدُّ ويأخُذُهَا الزَمَانُ ولايردُّ

هكذا يبدو لنا الشريف الرضى فى مراثيه حكيماً واعظاً أمام مأساة الموت.

٧. الدعاء بالاستســقاء لقبر المرثى: من ســنن العرب المألوفــة دعاؤهم لقبر الميت بالاستســقاء بعد أن يدفــن فى القبر، منها قــول متمم بن النُوَيرة فى رثــاء أخيه مالک (البستانى، ١٩٨٦م: ٦٥/٢):

سَقَی اللهُ أرضاً حَلَّها قَبرُ مَالِکِ رَهَامَ الغَوادِی المُزجَیاتِ، فأَمرَعَا

یقول: سقی الله تربة مالک بدیم السّحب الغوادی فتخصب تربته. فی هذا المجال تأثر الرضی بتقالید القصیدة الجاهلیة ودعا بسقیا لقبر المیت علی طریقة الجاهلیین فی مراثیهم فکان تقلیدیاً فی هذه الناحیة وسار علی منوالهم، کما یقول فی قصیدة یعزی أخاه عن ابنة له توفیت، منها (الشریف الرضی، ۱۳۰۷ش: ۱۲۷/۱):

أَرَابَ مـن یومکَ مَـا أَرَابا لازِلتُ أَستَسقِی لَکَ السَّحَابَا

کُلّ أَغَـرٍّ یـدِقُ الذِّهَابَـا مُجَـرِّرَاً علـی الـرُّبَی أهدَابَا

یوم وفاتک ألقی ریباً عظیماً فی قلوبنا وأنا لا أَزالُ أدعو وأتمنی من السُّحُب المطرة أَن تَسقِی ترابک، ثم شبّه الشریف الرضی هذه السُّحُب الممتلئة بالماء، بالنساء الحبلیات اللاتی یجررن أَهدَاب ملابسهن علی الأرض لشدة امتلائها بماء المطر.

۸. الشکوی من الزمان: «إنّ الشریف الرضی یری الدّنیا بعین الرجل المثقف، المثقف الشـریف، لا المثقف الصعلوک.» (زکی مبـارک، ۱۹۳۸م: ٤۹/۱) ولذلک نراه یبین أنّ الدّهر والزمان لیسـا ملامین علی موت الإنسـان، بل مکلفّان من جانب ربّهما القدیر والجلیل لأداء واجبهما وهو الموت (المصدر نفسه: ۱۲٥/۱):

لا لَـومَ لِلدَّهـرِ و لا عِتَابَا تَغَـابَ إنَّ الجَلدَ مَن تَغابی

صَبراً علی الضَّراءِ واحتِسَابا أَصبَرُنـا أَعظَمُنـا ثَوَابـا

ویتحدثُ عن الصبر والتغافل عبر هذه الفاجعة ویرینا انصباب الدموع وغلیان الغم فی القلـوب لأجل الفقید والمیت؛ وحال کون الدّهر یقوم بعمله ولا یرجع المرثّی بالبکاء والعویل. کما یقول فی موضع آخر فی القصیدة (المصدر نفسه: ۱۲۷/۱):

وإن لَبِسـتَ للبِلَی جِلبَابَا أری البکاءَ سَـفَهاً وعَابا

لاتَجعَلَنـه دَیدَنـاً ودَابَـا وافَـقَ مِنّـا أجَـلٌ کِتابَا

«لم یقتصـر الرضی فی بثّ شـکواه وذم زمانـه علی القصائد المسـتقلّة، بل ظهرت الشکوی فی قصائد ذات أغراض متنوعة، فکثیراً ما یذُمُّ زمانه ویتحدّثُ عن قلّة الحظّ وعن خیبة الآمال ویغتنم فرصة مدح سـلطانٍ أو خلیفة أو رثاء میتٍ من أسـرته لِیشیر إلـی أنّه لم یعط مـا هو أهلٌ له وأنَّ الأیـام قد ظلمته وأحداث الدّهـر وقفت فی وجه طموحاته.» (عمران، لاتا: ۲۰۷)

إنّ من عادات الدّهر فى مخيلة الرضى الغارةُ والشَنُّ حين يترصد الإنسان لِيغيرَ عليه ويجذبه فى فرصة ملائمة ومناسبة من حيث لا يفهم، مشيراً إلى هذا المضمون فى شعره (الشريف الرضى، ١٣٠٧ش: ١٢٨/١):

وَقَد شَنَّ فِيهَا حَادِثُ المَوتِ غَارَةً ثَنَتنا ولمَ تُطلِع إِلَينا كَتائِبَا

يتحدثُ الشريف الرضى فى كل موضع من أشعاره عن صفة ملائمة للدّهر على حسب مقتضى الحال والمقام، كما يتصف الدّهر بصفات مختلفة تارةً كـ"الدَّهر الغَلَّاب" (المصدر نفسه: ١٢٥/١):

أَمضَى الزَّمانُ حُكمَهُ غَلَّابَا أَصَابَنا وطَالَ مَا أَصَابَا

يشبّه الشريف الرضى فى هذا المجال الدّهر الغلاب بالحاكم الّذى يجرى ويمضى حكم الموت فينا ويصيبنا بالفاجعة وما يكون أطول هذه الفاجعة بالنسبة إلينا. وتارةً يسمّيه "الدَّهر الغَالِب" ويقول عندمايفاجئنا ويهجم علينا الموت لايدفعه البوّابون والحُجاب (المصدر نفسه: ١١١/١):

كَذَا يهجُمُ القَدَرُ الغَالِبُ وَلَايمنَعُ البَابُ والحَاجِبُ

وفى موضع آخر يصفه بـ"الدّهر الخَؤُون" من خلال ديوانه (المصدر نفسه: ١١٨/١):

لُزِزنَا مِن الدَّهرِ الخَؤُونِ بِمَصدَمٍ يحَطِّمُ أَشلَاءَ القَرِينِ المُجَاذِبِ

إنَّ هذه الصفات كلّها تظهر سمة من سمات الدّهر لشكواه وانزجاره منه، ليشكوا ممّا فى باطنه من أحداث الزّمان وموج الهموم. إنَّ الدّهر عند الرضى من المعنويات المجردّة، والرضى يجسّمه إنساناً فى عالم الواقع ويصفه بصفة الخؤون. لقد جاء الرضى بهذا الوصف ليؤكد على تصويره فى ذهن المتلقى، ثمّ يصوّر له قدرة الكفاح على رقيبه، ولايبقى قريناً إلا يحطّم أعضاءه وجوارحه فى هذا الكفاح.

النتيجة

– لقد اتّضح أنّ الشريف الرضى كان شاعراً مجيداً مكثراً بارعاً فقيهاً مبدعاً تميز شعره بجودة الألفاظ، وحسن الصياغة والديباجة، والخُلُوّ من عيوب التعبير أو ساقطات اللغة، متفوقاً بذلك على معاصريه أمثال المتنبى وغيره. وقد أجاد فى كل قصائده خاصةً رثائياته فى الإمام الحسين بن على(ع)؛ وقد حذا حذوه فيها كثير من الشعراء لاسيّما

شعراء الشیعة الذین یتفجعون علی مقتل الإمام الحسین(ع)، حیث کانوا یحفظون أشعاره وینشدونها.

– إنّ مراثیه تنقسم بشکل عام إلی قسمین: رثاء أسرته وأهل بیته، ورثاء الأصدقاء، والمملوک، والأعیان. وهو فی رثائه لأسرته وأهل بیته، یبتدأ برثاء أبیه، وأمه، وأهل البیت(ع) ثم یتطرق إلی الفخر بهم؛ أمّا فی قصائده الرثائیة للأصدقاء، والملوک، والأعیان أوّلاً یرثیهم ثم یقوم بوصفهم.

– عندما ننظر إلی أشعار الشریف الرضی من الناحیة الفخریة والرثائیة نراها تفوح منها الرائحة السیاسة غالباً، وأنّ أشعاره لم تکن للتکسب بل وسیلة إلی أغراضه السیاسیة لاسیما فی مرثیاته عندما کان یعبّر عمن یخالف العلویین بالأموية ویتخذ موقفاً سیاسیاً إزاء هذه القضیة ویغیر علی بنی أمیة بأسلوبٍ رمزی، ویدعوهم غاصبی الخلافة.

– إنّ الرضی هو شاعر الرثاء الذی وجد فی الرثاء طریقاً أفضل للوصول إلی هدفه، وقد أعانته علی ذلک عبقریته الفذّة، وما أصابه من الآلام والمصائب بسبب فقدان أعزائه وأصدقائه، ورثاؤه یحتوی علی فنون أخری من الفخر، والوصف، وغیره بحیث یمکن القول إنه بقصائده الرثائیة ینظم أشعاراً کاملة.

– إنّ رثاء الرضی لیس علی نسق واحد، فهو یتفاوت بتفاوت الذین یرثیهم قرباً أو بعداً من نفسه، کما أنّ أسالیبه فی الرثاء کانت کذلک. لعلّ أکبر عنصر متغیر فی مراثیه هو ملاءمة المرثیة لمقتضی الحال أی إنّه یراعی ما یلائم شخصیة المرثی من أوصاف وحدود، سواء کان الراحل فارساً أو کاتباً أو شیخاً نحویاً، رجلاً کان أو امرأةً، حضریاً أو بدویاً.

– لم یکن الرضی یلتمس الشهرة من رثاء الرجال المرموقین البارزین، بل کان یرثی حتی المغمورین من أصدقائه ممّن لم یشغلوا مناصب هامة. وتتجلّی الشجاعة فی رثائه لأشخاص غضبت علیهم السیاسة وانقلب الناس ضدهم، بینما بقی الرضی علی وفائه وإخلاصه لهم کرثائه للطائع لله الخلیفة المخلوع، ولأبی بکر بن شاهویه زعیم القرامطة فی بغداد. ولهذا الحزن الذی شغل الرضی فی حیاته، وللرّقة الحزینة التی تتغلغل وتنساب فی قصائده سمّاه الأدباء "نائحة الثکلی".

المصادر والمراجع

ابن أبی الحديد. (۱۹٦٥م). شـرح نهج البلاغة. تحقيق محمد أبوالفضل إبراهيم. الجزء الأوّل. ط۳. بيروت: دار إحياء التراث العربی.

ابن الأثير. (۱۹٦٦م). الكامل فی التاريخ. الجزء الخامس. بيروت: دار صادر للطباعة والنشر.

ابن الجوزی. (۱۹۳۹م). المنتظم. الجزء السابع. ط۱. حيدرآباد: مطبعة دائرة المعارف العثمانية.

ابن خلـكان. (لاتا). وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان. تحقيق: الدكتور إحسـان عباس. الجزء الرابع. بيروت: دار صادر.

ابن سينا، ابوعلی حسين بن عبدالله. (۱۹٦۹م). المجموع أو الحكمة العروضية. تحقيق: محمد سليم سالم. لامک: لانا.

ابن عنبه، أحمد بن علی بن الحسين الحسنی. (لاتا). عمدة الطالب. بيروت: دار مكتبة الحياة.

أبو عليوی، حسن محمود. (۱۹۸٦م). الشريف الرضی. لبنان: مؤسسة الوفاء.

الباخرزی، أبو الحسن. (۱۹۸٥م). دمية القصر. الجزء الأوّل. الكويت: دار العروبة للنشر والتوزيع.

البستانی، فؤاد أفرام. (۱۹۸٦م). المجانی الحديثة. الجزء الأول. ط۳. بيروت: دار المشرق.

التونكی، الشيخ محمود حسن. (۱۳٤٤ق). معجم المصنفين. الجزء الرابع. لامک: لانا.

الثعالبی. (۱۹۸۳م). يتيمة الدّهر فی محاسـن أهل العصر. تحقيق: الدكتور مفيد محمد قميحة. الجزء الأوّل. ط۱. بيروت: دار الكتب العلمية.

الحوفی، أحمد محمّد. (۱۹۷۹م). أدب السياسة فی العصر الأموی. مصر: دار نهضة لطبع ونشر.

الديلمی، مهيار. (لاتا). ديوان. المجلّد الأوّل. ط۱. لامک: لانا.

الرافعی، مصطفی صادق. (۱۹۷٤م). تاريخ آداب العرب. الجزء الثالث. بيروت: دار الكتاب العربی.

الزبيدی. (۱٤۲۲ق). تـاج العروس من جواهر القاموس. تحقيق: عبد الكريم الغرباوی. الكويت: مؤسسة الكويت للتقدّم العلمية.

الزوزنی، الحسـن بن أحمد. (۲۰۰٦م). شرح المعلقات السبع. تحقيق: محمّد الفاضلی. ط۱. طهران: مؤسسة الصادق للطباعة والنشر.

الزيات، أحمد حسن. (لاتا). تاريخ الأدب العربی. بيروت: دارالمعرفة.

الشريف الرضی، أبوالحسن محمد بن الحسين بن موسی. (۱۳۰۷ق). ديوان. مع دراسة وضيافة بقلم الشيخ عبدالحسين الحلی. بيروت: المطبعة الأدبية.

الشـريف الرضی، أبوالحسـن محمد بن الحسـين بن موسـی. (۱۹۷٦م). ديوان. صنعة أبی حكيم الخبری. تحقيق: عبدالفتاح الحلو. الجزء الأوّل. ط۱. باريس: دار الطليعة.

الشـريف المرتضی، أبوالقاسم علی بن حسـين بن موسی (۱۹۹۷م). ديوان. شرحه محمد التونجی. الجزء الثانی. بيروت: دار الجيل.

الصفـدی، صلاح الدین خلیل بن أیبک. (۱۹۹۱م). الـوافی بالوفیات. المجلد الثانی. بیروت: دار الکتب العلمیة.

ضیف، شوقی. (۲۰۰۷م). تاریخ الأدب العربی. عصر الدول والإمارات. الجزء الخامس. القاهرة: دار المعارف.

عزیز، جاسم. (١٤٠٦ق). الاغتراب فی حیاة وشعر الشریف الرضی. بیروت: دار الأندلس.

عمران، عبداللطیف. (لاتا). شعر الشریف الرضی ومنطلقاته الفکریة. دمشق: دار الینابیع.

الفاخوری، حنا. (۱۳۷۸ق). تاریخ الأدب العربی. ترجمة: عبد المحمد آیتی. ط٤. طهران: طوس.

فروخ، عمر، (۱۹۷۹م). تاریخ الأدب العربی. الجزء الثالث. ط۷. بیروت: دار العلم للملایین.

کحالة، عمررضا. (۱۳۷٦ق). معجم المؤلفین. الجزء الأوّل. لامک: لانا.

مبارک، زکی. (۱۹۳۸م). عبقریة الشریف الرضی. بیروت: المکتبة العصریة للطباعة والنشر.

متز، آدم. (لاتا). الحضارة الاسـلامیة فی القرن الرابع الهجری. ترجمة: محمد عبد الهادی أبوریدة. الجزء الأوّل. ط۳. لامک: لانا.

المتنبی، أبوطیب. (۲۰۰۹م). دیوان. راجعه وفهرسـه: د. یوسـف الشیخ محمد بقاعی. بیروت: دار الکتاب العرب.

محمد حلو، عبد الفتاح. (۱۹۸٦م). الشریف الرضی حیاته ودراسة شعره. القسم الثانی. لامک: لانا.

محی الدین، عبدالرزاق. (۱۹۷۷م). أدب المرتضی من سیرته وآثاره. ط۱. بغداد: مطبعة المعارف.

نورالدین، حسن جعفر. (١٤١١ق). الشریف الرضی حیاته وشعره. ط۱. بیروت: دار الکتب العلمیة.

پژوهشگاه علوم انسانی و مطالعات فرهنگی
پرتال جامع علوم انسانی